

	<p style="text-align: center;">Scientific Events Gate Innovations Journal of Humanities and Social Studies مجلة ابتكارات للدراسات الإنسانية والاجتماعية IJHSS https://eventsgate.org/ijhss e-ISSN: 2976-3312</p>	
---	---	---

رثاء الذات في الشعر الجاهلي

المدرس المساعد .شيرين كاظم غياض

جامعة كربلاء / كلية العلوم الإسلامية – العراق

Shireen.k@uokerbala.edu.iq

المخلص: في دراسة رثاء الذات في الشعر الجاهلي، أظهر مجموعة من الشعراء البارزين قدرتهم على إثبات أنفسهم في مجتمعاتهم بفضل شجاعتهم وفروسياتهم، وقدموا صوراً مشرقة لمناقبتهم وبطولاتهم باستخدام فنون التعمير. لكن هذه الفترة لم تدم طويلاً، فبعد أن حلت رحلة الهرم والشيوخة محل رحلة الشباب، ضعفت صحتهم وألمتهم الأمراض، مما جعلهم يشعرون بالعجز والسكون وقلة الحركة، وبالتالي، بدأوا يستعرضون في شعرهم صور الموت وما بعده، متخيلين مشاهد متنوعة تدفع القارئ إلى التفكر في أحداث ما بعد الحياة.

الكلمات المفتاحية : ذات، جاهلي ، رثاء

Self-Pity In Pre-Islamic Poetry

Assistant teacher. Shireen Kadhim Ghyadh

University of Karbala– college of Islamic sciences–Iraq

Shireen.k@uokerbala.edu.iq

Received 09/06/2024 – Accepted 05/07/2024 Available online 15/07/2024

Abstract: In the study of self-elegy in pre-Islamic poetry, a group of poets demonstrated their ability to etch their names in the annals of fame in their societies through bravery and prowess. They glorified their exploits and courage using poetic embellishments. However, this era was fleeting, giving way to the journey of old age and senescence, which robbed them of health and subjected them to debilitating illnesses, leading to a sense of incapacity, stillness, and reduced mobility. Consequently, they began to explore in their poetry vivid images of death and the events thereafter, painting diverse scenes that compel the reader to contemplate these unfolding events.

Keywords: Self, Ignorant, Lamentations

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين .

يعد رثاء الذات من أكثر الفنون الشعرية التصاقاً بالذات الإنسانية، وأكثرها صدقاً في التعبير عن ماهية هذه النفس ومكوناتها، ورثاء الذات فرع من تشعبات الرثاء عامة، إذ يمثل نقطة التقاء شريط الذكريات باللحظة الآتية مع استقبال الموت المحتوم.

بعد ذلك تتضمن المقدمة نظام الدراسة وهي دراسة تحليلية للنصوص الشعرية الجاهلية، وأسباب الدراسة، وأهدافها، وأهميتها، وحدودها، ومن ثم الخطة المعدة لتلك الدراسة.

أسباب الدراسة

يعد الرثاء من الأغراض التي تتصف بصفات خاصة والعواطف والمشاعر الإنسانية صفة مهيمنة في هذا الغرض إذ تمتزج فيه مشاعر البكاء واللوعة والأسى على الآخرين وحين يتفكر الإنسان بصورة الموت ورثائه للآخرين يستشعر حينها بالشفقة على نفسه فيستجلب عندها العواطف السلبية ولا سيما الشاعر وكيفية تصويره لهذا الوقع الأليم وكيفية عزاء الناس لذاته وهذا موضوع أساس يراودنا كبشر بين الفينة والأخرى ولاسيما موت المقربين منا .

أهداف الدراسة

الاطلاع على الشعر الجاهلي ولاسيما رثاء الشعراء الجاهليين لأنفسهم لغرض بيان تلك النفسيات المقبلة على الموت ومعتقداتهم لذلك الغرض النفسي والوجداني ومدى استسلام تلك النفس لحقيقة الموت وحتميته والقناعة بزوال الحياة الدنيا وملذاتها.

أهمية الدراسة

تكمن أهمية هذه الدراسة ببيان حال الجاهليين في استقبال الموت وتوضيح جانباً مهماً من عادات وتقاليدهم تجاه الميت فمنها طقوس غسل وتكفين الميت إضافة إلى طقوس البكاء والنعويل وأذية الذات من لطم للخود وتمزيق للملابس وقص الشعر للنساء وغيرها فضلاً عن العواطف الإنسانية الجياشة ولاسيما توظيف الشاعر الجاهلي لتلك المشاعر التي تميزت بالصدق العاطفي والواقعي.

حدود البحث

حدود البحث موضوعية وتحليلية تتضمن شرح النصوص الشعرية الجاهلية وبيان مقاصد الشعراء أرائها

خطة الدراسة

اقتضت خطة البحث الموسوم (رثاء الذات في الشعر الجاهلي) أن يكون بناؤها على وفق خمسة مطالب يسبقها تمهيد يتمثل بمعرفة معنى الرثاء لغة واصطلاحاً ومن ثم جاء المطلب الأول بعنوان أقسام الرثاء أما المطلب الثاني فكان بعنوان الموقف من الموت أما الثالث فجاء بعنوان علاقة الرثاء بالأسطورة والنقش على الحجر أما الرابع جاء بعنوان (ظاهرتا الخسوف والكسوف) ومدى توظيف مخيلة الشعراء للرثاء بمساعدة هاتين الظاهرتين. أما الخامس فكان بعنوان جدلية العلاقة بين الموت والحياة.

الدراسات السابقة

رثاء النفس في الشعر الجاهلي لمحمد رمضان بيومي

المثالية في شعر الرثاء الجاهلي (دراسة وتحليل) لـ صدام علي صالح ونصرة احمد الزبيدي

المنهج المعتمد في كتابة البحث

استقراء دواوين شعراء العصر الجاهلي ولاسيما الشعراء الذين رثوا انفسهم قبل موتهم وتحليل نصوصهم الشعرية على نحو اعمق لما لها من صلة بالعواطف والمشاعر الجياشة الصادقة فكان المنهج التحليلي الوصفي منهجاً معتمداً في تلك الدراسة.

التمهيد

رثاء الذات

هو البكاء والحزن عليها عندما يتيقن الراثي (المرثي) بدنو اجله وانقطاع امله وهو من افضل الوان الرثاء ، ان لم يكن افضلها على الإطلاق ؛ وذلك لما يبرز في شعره من صور بلاغية ، وقيم جمالية وعاطفة حزينة وشعور صادق فالراثي هنا هو المرثي وأي شيء يكون احب من النفس ولذلك نجد ان قصائد هذا النوع او اللون من الرثاء قد سارت بها الركبان وانشدها الأديباء على مر العصور والأزمان فصارت وشاحا وعقدا تزين به الكثير من كتب الأدب القديمة منها والحديثة..

قال لبيد(1962, Abbas)

وما المال والأهلون إلا وديعة ولا بد يوماً ان ترد الودائع

وقال آخر (Al-Damiri, dt).

فللموت تغدو الودائع سخالها كما لخراب الدهر تبنى المساكن

الرثاء في (اللغة)

يرتبط المدلول اللغوي (الرثاء) بالميت والبكاء وهما في الأصل مصدر للفعل رثى فيقال رثيت الميت رثيا ورثاء ومرثاة ومرثية(Ibn Manzur, 2003)، ويدل رثى في اصله اللغوي على التوجع والإشفاق (Al-Naama, 1997) وأخذ مدلول الرثاء يرتبط بالقصيدة الشعرية.

ويقول ابن فارس بأن الرثاء، والثاء، والحرف المعتل أصل على رقة واشفاق ، يقال رثيت لفلان : رقت ، ومن الباب قولهم رثى الميت بشعر ، ومن العرب من يقول ، رثأت وليس بالأصل (Ibn Manzur, 2003)

وكذلك (الرثاء) في اللغة : يعني بكاء الميت وتعدد محاسنه يقول ابن منظور ((رثى فلان فلانا يرثيه رثيا ومرثية اذا بكاه بعد موته قيل رثاه ، يرثيه ، ترثيه، ورثيت الميت رثا ورثاء ومرثاة ومرثية ورثيته مدحته بعد الموت وبكياته ، ورثوت الميت أيضا اذا بكياته وعددت محاسنه ، وكذلك اذا نظمت فيه شعرا (Zubaidi (d.t). ، وعرفه بعضهم بأنه ((حسن الثناء على الميت)) (Ben Zakaria, 1993)

وقيل في (رثى): رثى الميت رثيا ورثاء ورثاية ومرثاة ومرثية بكاه بعد موته وعدد محاسنه ، ويقال رثاه بقصيدة ورثاه بكلمة ، وله رحمه ورق له (رثاه ومدحه) بعد موته (المرثاة) يرثى به الميت من شعر وغيره.(مصطفى ، الزيات ، عبد القادر ، النجار ، د. ت//ص311)

الرثاء (اصطلاحا)

هو بكاء الميت والتفجع عليه وإظهار اللوعة لفراقه والحزن لموته وعد خصاله الكريمة (Hassan, 2012)

، وهو عند عرب البادية : كان تشييع الميت بمشي الأقراب خلف الجنازة حفاة وبحل النساء شعورهن وتلطيف رؤوسهن بالرماد وقد يحلقن النساء رؤوسهن حزنا على الميت (Al-Fakhouri, 1986)

أما الرثاء في الأدب فهو: الشعر الذي يعبر فيه الشاعر عن الحزن واللوعة التي تتأبها لغيباب عزيز ففجع بفقده ، بتعداد مناقبه والإشادة بمأثره والتوجع عليه وتتردد في الرثاء صولة الموت وسلطان الفناء ويتضمن ابياتا حكيمية تدعو الى الاعتبار والزهد . (Al-Husseini, 1414H)

والشاعر الجاهلي كان يتبع في رثائه المنهج الشعري الجاهلي المعروف احيانا ويدخل في الرثاء مباشرة احيانا اخرى . ففي اتباعه المنهج الشعري الجاهلي كان يقف على الأطلال ويقايا منزل الحبيب ، فيبكي ويسأل الأشياء عن حبيبه ولكي ينسى ألمه ينتقل الى الصحراء بالركوب على جمل قوي سريع يشبه حمار الوحش فيصف ما تقع عليه عيناه ، ثم يدخل في الرثاء ، وهو مقصد كل خطاب عندما يحل (الرزء) بفقد الشيء فيندب ذلك الشيء (Cartaginez, 2008) والمقصد عنه رثاء ، لأن مقصد الخطاب المنجز يتمحور حول مصيبة ألفت به أو بغيره أو بموضوع المحاكاة ، أو التخيل عموما . (Domnul Hussein, articole, publicate în Aloka Network)

المطلب الأول : اقسام الرثاء

ويقسم الرثاء الى ثلاثة ألوان هي: الندب، التأبين، العزاء .

1- الندب : فهو بكاء النفس ساعة الاحتضار وبكاء الأهل والأقارب وكل من ينزل منزلة النفس والأهل من الاحباء واخوة الفكر والاتجاه والمشرّب ، بل يمتد الى رثاء العشيرة والوطن والدولة حين تصاب بمحنة من المحن القاصمة المحزنة. (الطائي، 1322H)

2- التأبين : فليس بنواح ولا نسيج كالندب ، بل هو اقرب الى تعداد الخصال وازجاء الثناء. إنه تنويه واشادة بشخصية لامعة او عزيز ذي منزلة في عشيرته او مجتمعه ، وهو تعبير عن حزن الجماعة على الفقد اكثر منه تعبيراً فردياً عن ذلك. (Al-Tai, 1322.H)

3- العزاء : هو في مرتبة عقلية فوق مرتبة التأبين ، اذ هو نفاذ الى ما وراء ظاهرة الموت وانتقال الراحل ، وتأمل فكري في حقيقة الحياة والموت . تأمل ينطلق الى افاق فلسفية عميقة في معاني الوجود والعدم والخلود . (Al-Tai, 1322 H)

وبتعدد صور الرثاء نلاحظ تطوره عبر العصور والازمان وهذا يبدو طاغيا من حيث الاسلوب والالفاظ والمعاني وما يتخلله من طقوس ولا سيما الطقوس الخاصة بمراسيم العزاء والبكاء على الميت ففي العصر الجاهلي تتعدد خصال الميت الحميدة ويذكرها الشاعر ويضعها في طابع وجداني بحت اما في العصر الاسلامي فنلاحظ المسلمات التي تذكر الانسان بالموت الحتمي وضرورة مراعاة التعامل بحكمة في الحياة لما لها من اثر يخلفه الميت فيمن بعده من اهل واقارب واصدقاء...

لقد وقف الجاهليون أمام الموت وحاولوا دفعه الا انهم ايقنوا أنه لا طاقة لهم به ولهذا ومع غياب الايمان بما وراء الموت قد بعث وحساب أدركوا ان عليهم التسليم بما يترتب عليهم ومصائب نسبوها تارة الى الدهر ، وتارة اخرى الى قوة خفية تترتب بهم. وحين صور الرثاء الموت حاولوا تصوير موقفهم منه ثم صوروا ما ترتب عليه من عزاء واستسلام لتلك

الفاجعة كما افتخروا بوقوفهم غير مكترئين به حيث سيمضون في حياتهم متجلدين بالصبر في حين ركن بعضهم الى البكاء وانهارت قواهم، كما حاول عدد من شعراء الرثاء ابراز عزاءهم تجاه هذا الموت ، واستمدوا صوراً من البيئة التي عاشوا فيها ليعزوا بها انفسهم ، فحينما يعزون انفسهم بذكر ما حل بالأمة السابقة والممالك الخالية، وحينما يعزون انفسهم بذكر ما يحدث في الطبيعة المحيطة بهم وما يفعله الموت بالحيوانات وكل ما يعيش في بيئتهم وحينما حاصر الشعراء الفراغ حاولوا التسلي بذكر موتاهم وافتخروا بمناقبهم واحسنوا تأبينهم فكان ذلك خير عون لهم في تحمل ما اصابهم .
(Abbas, 1962)

قال الغطمش الضبي (Grădinar, 1961)

الى الله اشكو الى الناس انني ارى الأرض تبقى والأخلاء تذهب
أخلاء لو غير الحمام اصابكم عتبت ولكن ما على الموت معتب

والشاعر الجاهلي يأتي بالحكمة في رثاءه ليتخلص من همومه اذا لم يجد سبيلاً الى إدراك الثأر او اذا ادركه ، او اذا كان الميت قضي غير مقتول بمرض أو حادث طبيعي ، فيعمد الى تعزية نفسه بذكر مصائب الدهر وفلسفة الحياة والموت
(Abbas, 1962)

فيتحدث عن الولادة والموت ، ويراهما من طبيعة الحياة ، فكل ولادة يعقبها موت لا مفر منه لأحد ، فهو يبرز بهذا حوادث الدنيا ومشاقها ليجعلها قابلة للتحمل .

فلا جزع إن فرق الدهر بيننا وكل يوم به الدهر جازع

فلا أنا يأتيني طريف بفرحة ولا انا لما احدث الدهر جازع (Al-Husseini, 1414 H)

ورثاء الممزق العبيدي لنفسه وتصويره لطقوس الموت التي ستجري على رفاتة من ترجيل لشعره ودرج جثمانه في اكفانه ثم لحدده حيث يقول (Ibn Manzur, 2003)

هل للفتى من بنات الدهر من واق

ام هل له من حمام الموت من راقٍ

قد رجلوني من رجلت من شعثٍ

والبسوني ثياباً غير اخلاقٍ

وارسل فتية من غيرهم حسباً

ليسندوا في ضريح التراب اطباقي

المطلب الثاني/ الموقف من الموت :-

يطلق الموت في كلام العرب على السكون ، يقال: ماتت الريح اذا سكنت (Ibn Manzur, 2003), ولا تطلق لفظة الموت الا على الاحياء كالإنسان والحيوان والنبات ، اما الفناء فقد اخص بالجملادات ، وهي لفظة كثيراً ما تصادفنا عند

دراسة القوائد الي قيلت في رثاء الممالك والمدن والاطلال الزائلة . وقد يقبل للحي : انه (فان) (Abdul Rahman, 1992).

وحين نرصد مواقف الشعراء ازاء الموت لآبد من الحديث عن الموت عن الامم وما صاحب ذلك من الآم واوجاع , فلكل حضارة من الحضارات ولكل امة من الامم حالة روحية تتلبس انسانها وتمثل المحور الاساس الذي يتحرك تفكيره في اطاره , وتشكل البؤرة الاساس في اعتقاده وسلوكه وابداعه. والفكر العربي قبل الاسلام يرتبط ارتباطاً موضوعياً بالظروف التاريخية التي عايشها , لذا فهو يعبر عن محتواه ومضمونه عن خصوصية تلك الظروف من خلال الآراء والافكار والمعتقدات التي يطرحها. . (Bashir, 1997)

وقد احاطت بالإنسان العربي قبل الاسلام ظروفاً قاسية جعلته يشعر انه تحت تأثير وطأة الموت الذي يأتيه من كل مكان بشتى صورته فأما بالحروب او الثأر او الجوع او الهرم. فأصبح اينما يولي وجهه يرى الموت امامه وقد سد عليه افاق صحرائه الواسعة التي اضحت قبراً سحيقاً لا يرجع من يهوي فيه , او قد يصبح تراباً او عدماً بمجرد ان تزل قدمه فيه. . (Bashir, 1997) ولهذا كان العربي يخشى الموت ولا يتألف معه على الرغم من اعتياده على رؤية صور عديدة له , وكان يشعر بالتعاسة والفجيرة , فقد شعر انه قبالة الموت , تلك القوة العاتية المجهولة التي تأتي على حين غرة لتلتهم من تشاء وتترك من تشاء على ان تعاوده ليلاً او نهاراً .. ولم يكن هناك ما يوضح ماهيتها ويفك رموزها ويحل الغازها . (AI-Qurashi, 1981)

وكان الشاعر العربي اقدر على تصوير ما يختلج في نفسه تجاه هذا اللغز المثير وكثيراً ما يقف عنده ويتأمل حاله وماله وما ينتهي اليه .فها هو (ابو ذؤيب الهذلي) تجره الاقدار للوقوف امام هذا الخصم اللدود فيحاول مقاومته او دفعه لكنه سرعان ما يستسلم امامه مؤكداً ان (الدهر ليس بمعتبٍ يجزغ) بل انه يستنكر على من يظهر جزعه من الموت قائلاً متسائلاً في مطلع قصيدته التي يرثي بها ابنائه. . (AI-Qurashi, 1981)

أمن المنون وريبها تتوجع والدهر ليس بمعتب من يجزع

ويمثل هذا التساؤل تتمثل نظرة الانسان في العصر الجاهلي الى الموت فليس مع الموت وريبه من توسلات وشفاعة فقبول الامر الواقع والتسليم له هو الطريق الوحيد . ولذلك جنح الشعراء الى عزاء انفسهم وحثها على الصبر والرضا بالقدر المحتوم , فالموت قدر لا مفر منه ولا مهرب يقول علقمة الحميري :

والموت ليس له دافع اذا حميم عن حميم دفع . (AI-Qurashi, 1981)

فالموت حقيقة محتومة , ومشرع لا بد من وروده طال العمر ام قصر لأنه النهاية التي يؤول اليها الاحياء .

وكثيراً ما ينظر شعراء الرثاء الى الموت نظرة العدا والسخط , فها هو ابو ذؤيب يشبه الموت بسبع له اظفار ومخالب ينشبها في كل حي ليلقيه صريعاً فلا تنفع بعد ذلك تمائم وتعاويد :

وإذا المنية أنشبت اظفارها الفيت كل تميمة لا تنفعُ (AI-Hawi, 1979)

والمتمأمل في قصيدة ابي ذؤيب خاصة يجده فيها يرتفع تحت وطأة معاناته تلك الى الافكار العامة حول الوجود والعدم , ثم يقيس واقعه الخاص بواقع الآخرين وواقع الوجود ثم يقرر بعد ذلك ان الموت قدر محتوم وان اية قدره مهما بلغت من القوة والحرص لا تغير من هذه الحقيقة شيئاً وهذا المعنى يسمو على ما دونه لكونه خلاصة من التجارب الخاصة التي سعت

الى ان تتسم بالموضوعية . ويشير النقاء الى ان (مثل تلك الخلاصات الذهنية والنفسية التي يخلص اليها الشاعر من معاناته تتم هي الاخرى من رضوخ الانسان للعقل والسعي الى بث المعارف الشجية بدلاً من ثقل المعاناة بطبيعتها والامتناع عن تقييدها وبذلها وفقاً للمفهوم العام (Bashir, 1997)

وابو ذؤيب هنا ينبه الى ان الانسان يواجه الموت بقوة نفسه فقط وان اية قوة خارجية طارئة على النفس التي تواجه الموت هي قوة فاشلة حتى وان كانت تلك القوة حقيقية (ومثل لها بالأب الحريص على ابنائه) او موهومة ورمز لها بالتميمة. (Al-Qurashi, 1981)

وقد صور شعراء المراثي الموت بصور شتى فهو امرٌ محتمٌ واقع دون شك في وقت غير معلوم , كما انه متسلط على البشر يظلمهم ويتابعهم ويراهم ويعلم كل حركاتهم وسكناتهم في حين لا يرونه, لذلك لا ينفع الهرب منه او توخي الحذر فهو كما يقول (اعشى باهله) آتٍ على كل الناس لا يستتني منهما أحدا:

تأتي على الناس لا تلوي على أحدٍ حتى أتتني بها الانباء والخبرُ (Al-Qurashi, 1981)

فالشاعر دائم التفكير في الموت يشعر بالخوف منه , ويعيش بقلق ويتربص اليوم الذي يأتي فيه لينتزع من بين احضان الحياة

يقول محمد بن كعب الغنوي :

لعمركما ان البعيد لما مضى وان الذي يأتي غداً تقربُ

واني وتأميلي لقاء مؤملٍ وقد شعبتُه عن لقاء شعوب (Bashir, 1997)

فالموت بعيد , والموت يأتي قريباً , واللقاء المؤمل هو الموت , فكل شيء عنده يوحي بالموت ذلك الشيء الغامض المخيف .ان السبب وراء خوف الشاعر واحساسه بأزمته كانت في اعتقاده بفنائها وعدميته , فكان يعتقد ان الانسان بموته يصير الى عدم , ولم يكن يتصور وجوده ولا حياته بعد الموت , فقد كان ينظر الى الحياة من حوله فيجدها صورة من الفناء من كل شيء (Al-Qurashi, 1981)

ويؤكد علقمة الحميري على ان الموت يطول كل شيء حتى البناء العظيم الذي شيده ملوك حمير والصروح الشامخات , وما بنى تبع , وقصور بلقيس وكل هذه الجمادات مصيرها الفناء والزوال :

هل لأناس مثل اثارهم بمآرب ذات البناء اليفع

او مثل صرواح وما دونها من بنت بلقيس او ذو تبع (Al-Qurashi, 1981)

ولا يختلف (ابو زيد الطائي) عن غيره من شعراء المراثي فهو يفصح بالحقيقة الناصعة وهي ان الموت يطول كل من على هذه البسيطة فهو سنة الحياة الخالدة , فأصبح لا يحزنه موت والد او مولود .. يقول :

ان طول الحياة غير سُعود وظلال تأميل نيل الخلود

تمل المرء بالرجاء ويضحى عرضاً للمنون نصباً كعود

كل يوم ترميه منا برشقٍ فمصيب اوصاف غير بعيد

كل ميت قد اغتفرت فلا أف جع من والد ولا مولى (Ibn Manzur, 2003)

فالموت هو القدر المحتوم لكل شيء على هذه الأرض واني لشيء ان يفلت من قبضته !

المطلب الثالث/ علاقة الرثاء بالأسطورة والنقش على الحجر:

إن للشعر قوة تفوق السحر في تأثيره على الناس ، خاصة الرثاء . فالشعر ((هو كلام او قول منظوم غلب عليه الوزن والقافية لشرفه والشعر من الفطنة فقد سمي الشاعر بذلك لفننته واجادته وهو أدخل في النفس يصورها ويدل عليها ويغنى ليعت في النفس التأثير)) (Ibn Manzur, 2003)

أما السحر فهو عمل يتقرب به الشيطان وبمعوونة منه ومنه الأخذة التي تأخذ العين ، حتى يظن أن الأمر كما يرى وليس الأصل ، قال الأزهري وأصل السحر صرف الشيء عن حقيقته الى غيره . (Al-Buhturi, 2007).

ولم يكن الشعر وحده هو الذي اوصل لنا ذلك فقد ايده القرآن الكريم بقوله تعالى((وقالوا ماهي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر وما لهم بذلك من علم ان هم الا يظنون)). (Sura Al-Jathiya, versetul: 24)

وفي الشعر الجاهلي دليلا على ما ذكر منه قول عدي بن زيد (Buhturi, 2007)

ماذا ترجي النفوس من طلب الخير وحب الحياة كاذبها

تظن ان لن يصيبها عنت الدهر وريب المنون كاربها

فهذه الأبيات تدل على أن الانسان يتمنى طول البقاء ودوام العمر ، لكن حوادث الدهر تجرعه السم وتؤدي به الى القبر كقول النابغة الجعدي (Buhturi, 2007)

المرء يهوى أن يعيش وطول عيش ما يضره

تذوى نضارته ويعبر بعد حلو العيش مره

تتتابع الأحداث حتى ما يرى شيئاً يسره

وحين نتطلع الى التجربة التي يعيشها العربي في العصر القديم ، فإننا نراها تركت هواجسه على شعره وآثارها كلها نحو المصير القلق والحيرة المستمرة فالعربي غالبا لا يستطيع ان يتقبل بأن هناك حياة اخرى بعد الموت فما كان عن بعض الجاهليين الا أن قام بنقش اسمه على الحجاره او على القبور آملا متوقعا الخلود بأفعاله تلك والنفس البشرية تتوق دائما الى استمرار الحياة وديمومتها.

ومفردة النقش معناها الأثر على الأرض (Ibn Manzur, 2003) ، إذ سعى الجاهليون الى حفر اسمائهم ونقشها على الصخور والحجاره والمعابد لتبقى ذكراهم خالدة على مدى العصور .

المطلب الرابع/ علاقة الرثاء بالظواهر الفلكية منها:

ظاهرتا الخسوف والكسوف:

برزت في شعر الجاهلية ظاهرتا الخسوف والكسوف ، لاسيما في شعر الرثاء ، حيث اقترنتا في فكرهم بموت عزيز او سيد عظيم في قومه ، ولعل الشعور النفسي الذي تولده هذه الظواهر الطبيعية كان اساس هذا الربط من حيث غياب الميت وحجب الشمس والقمر وكان من طبيعة الشاعر الجاهلي (أن يمزج بين الحالة النفسية وبين الطبيعة) التي تبدو حزينة اذا كان حزينا ومبتهجة اذا كان مبتهجا فليس لها كيان في نفسه الا بمقدار ما تنعكس على صفحة احساسه (Abdel- Saboor, 1973)

ويصف عنتره ما صاحب موت الملك زهير بن جذيمة من فوضى كونية حيث صنف القمر وتوارى نوره وتهاوت النجوم وغابت عن الانظار ليعم الظلام في اشارة واضحة الى هول وقع الخبر على نفس عنتره فيقول:

خُسف البدر حين كان تماماً وخفى نوره فصار ظلاماً

وذراري النجوم غارت وغابت* وضياء الأفاق فصار قتاما

حين قالوا زهير ولى قتيلاً خيم الحزن عندنا واقاما (Al-Nisaburi, 1329H)

ومن الواضح في الابيات السابقة ، ان خسوف القمر مرتبط بالحالة النفسية السيئة التي يصابها الشاعر، فخسوف القمر مرتبط بالحزن والكآبة التي يعيشها الجاهلي ، وفقد عزيز يخيم على النفس الانسانية كما الظلام الذي يحول النهار وضوؤه الواضح للعيان الى ظلمة حالكة لا تنعكس على البصر فحسب بل يمتد اثرها الى الذات النفسية الكالحة...

وعندما جاء الاسلام أبطل هذا الاعتقاد وبين ان لا علاقة بين خسوف القمر وبين الموت . قال صلى الله عليه واله وسلم (إن الشمس والقمر فإذا رأيتوهما فافزعوا الى الصلاة) (Die, 1934)

واتخذ الشاعر الجاهلي من اللون الاسود رمزاً للحزن على الميت ، لما يحمله من دلالات تشاؤمية تجسدت في ذهنه منذ زمن بعيد كما جعله وسيلة جوهريه ساهمت في التعبير عن المعنى وتعميمه. (Siriană, 1990) وبدا هذا جلياً عند الشاعرة ام ندبة ، يوم فجعت نبأ موت ابنها حيث اتخذت من الليل عنصراً رئيساً في ابراز التأثير المأساوي للخبر عليها ، كما انها لجأت الى اصفاء اللون الاسود على البدر ليبقى الليل مستمراً ، وكأن النهار لا يأتي ابداً ، في اشارة منها الى استمرارية حزنها فتقول:

فيا يوم الرهان فُجعت فيه بشخص جاز عن حد الصفات

ولا زال الصباح عليك ليلاً ووجه البدر مسورّ الجهات . (Siriană, 1990)

وهكذا فإن اقتران صورة المرثي بصورة القمر ، صورة مألوفة في الشعر الجاهلي ، ولعل ما يحمله القمر من صفات ودلالات تتلاءم مع المرثي ، كان من الاسباب الكامنة وراء ذلك حيث غدت خير ممثل لما يختلج في نفسه من مشاعر وعواطف جياشة تجاه المرثي.

المطلب الخامس/ جدلية العلاقة بين الموت والحياة

سيطرت فكرة الموت على فلسفة وافكار الشعراء الجاهليين ، فربطوا تفكيرهم ومعتقداتهم وسلوكياتهم بهذه الفكرة ، لقد وقف الجاهلي عند الموت وفكر فيه وتأمله ، وانتهى الى ان الموت حقيقة محتومة ومشروع لا بد من وروده ، طال العمر أم قصر ، كما أن الموت انقطاع لهذه السلسلة المتصلة من الايام والليالي التي تسمى (Al-Asadi, 1994) .

ومن الغريب ان يقرر الدكتور مصطفى الشوري ان الجاهلي : انتهى الى ان الموت حقيقة محتومة ، ومشروع لا بد من وروده فهذه الحقيقة يعرفها البشر جميعاً فضلاً عن الجاهلي .

وربما العلاقة الجدلية بين الموت والحياة جعلت الشاعر الجاهلي يرى الحياة مرادفاً للموت والموت مرادفاً للحياة حيث ان كل لحظة في حياة الجاهلي تحمل في طياتها الموت الزؤام ولحظات الموت المنتهية تحمل حياة جديدة ، انها دائرة لا بداية لها ولا نهاية ، وعليه فقد نظر شعراء الجاهلية الى جدلية الموت والحياة نظرتين :

النظرة الاولى : نظرة الاستسلام والخضوع للقدر وللدهر ، حيث يقول بشر بن خازم (Ashmawy, 1980)

وكل نفس امرئ وان سلمت يوماً ستحسو لميته جُرعا

فهذا الموت عصي على المعرفة ، ترقد فيه اسرار جليلة ، فلا غرابة ان يحار الشاعر الجاهلي في امره هذه الحيرة القاسية التي تنتهي به الى الاقرار والاستسلام . (Ashmawy, 1980)

النظرة الثانية : نظرة التمرد واستغلال كل لحظة في الحياة ؛ لأن الموت لا بد ان ينزل بهم فلم لا يستمتع الانسان بحياته حتى اخر لحظة كما فعل طرفة بن العبد وامروء القيس حيث أحببا الحياة من أعماقهما ، وتقانيا في خدمة ذاتيهما حتى انتهى بهم الأجل فكان الانسان يستنفذ كل طاقاته ويستغل جميع ايامه من اجل البقاء فلن يبلغ الانسان من الخلود الا بقدر ما يحقق في هذه الحياة من أمجاد وما يبلغ منها من بطولات وما يظفر به من متاع (Ashmawy, 1980)

ومن ثم سادت لدى العرب القدماء هذه القوة الحيوية أو سمها اذا شاءت قوة الحياة التي أمّلت ارادتها على الجسد والفكر على السواء ووجهت حياة هؤلاء القوم نحو تحدي الطبيعة بإرادة قوية ، ويعزم وبطولة وارادة لا تعرف الضعف ولا تستسلم للهزيمة ارادة تقاوم وتستمر بالمقاومة حتى الموت . (Imru' al-Qays, 2004)

نماذج من الشعراء الذين رثوا أنفسهم:

امرؤ القيس يرثي نفسه:

عندما عاد امرؤ القيس من بلاد الروم منصرفاً عن قيصر ملك الروم بعدما أعطاه حلة مسمومة فلما وصل الى أنقرة لبسها فتقطع جلده وهلك وقيل أن يلفظ انفاسه الأخيرة قال: (Imru' al-Qays, 2004) .

لقد دمعت عينا في القر والقبيظ وهل تدمع العينان الا من الغيظ

فلما رأيت الشر ليس بيارح دعوت لنفسي عن ذلك بالقبيظ

وقال أيضا قبل ذلك حينما رأى قبر امرأة في سفح جبل عسيب الذي مات عنده (Andaluză, 1983)

أجارتنا إن الخطوب تتوب واني مقيم ما اقام عسيب
اجارتنا إنا غريبان وهنا وكل غريب للغريب نسيب
فإن تصلينا فالقراية بيننا وان تحرمينا فالغريب غريب
أجارتنا ما فات ليس يؤوب وما هو آت في الزمان قريب
وليس غريبا من تتاءت دياره ولكن من وارى التراب غريب

رثاء عبد يغوث لنفسه قبل موته

لما أسرت بنو تيم عبد يغوث وذلك في يوم الكلاب عندما وقعت الحربين بين بني تيم وعبد يغوث في أيام الجاهلية وكان عبد يغوث فارسا وشاعرا ، فشدوا على لسانه نسعة* وخوفا من أن يهجوهم قبل موته ، فقال لهم : انكم قاتلي ولابد ، فدعوني أذم اصحابي وأنوح على نفسي ، فقالوا : انك شاعر ونخاف أن تهجوننا فعقد لهم ان لا يفعل . فأطلقوا لسانه وأمهله حتى قال قصيدته المشهورة الرائعة (Andaluzā, 1983)

ألا لا تلوماني كفى اللوم ما بيا وما لكما في اللوم خير ولا ليا
ألم تعلمنا أن الملامة نفعها قليل وما لومي أخي شماليا
فيا راكبا اما عرضت فبلغن نداماي من نجران أن لا تلاقيا
ابا كرب والا يهemin كليهما وقيسا بأعلى حضرموت اليمانيا
جزى الله قومي بالكلاب ملامة صريحهم والآخرين المواليا
ولو شئت نجتني من الخيل نهدة ترى خلفها الحو الجياد نواليا
ولكنني أحمي ذمار ابيكم وكان الرماح يختطفن الفحاميا
أمعشر تيم قد ملكتم فأسجحوا فإن أخاكم لم يكن من بوئيا
فإن تقتلوني تقتلوا بي سيدا وإن تطلقوني تحاربوني بماليا

الخاتمة

إن رثاء الذات هو التعبير عن مشاعر انسانية صادقة محفوفة بخوف مريب من الموت ونظرة متألمة لما بعد موت الذات نفسها ، وقد استطاع الشاعر الجاهلي توظيف شعره في رثاء ذاته وحزنه عليها راسما ومتخيلا نظرة اهله ومحبيه واعداه لهيئة موته معبرا عنها بصورة شعرية مكثفة بالدلالات الشعرية المعبرة. وبطبيعة الانسان ومنذ الأزل يشيد بمحاسن الميت حتى وان كان في حياته له صفات سلبية ولربما لا يمتلك حسنة واحدة تشفع له وتخلد ذكراه الا ان غرض الرثاء يرتبط ارتباطا عميقا بالحكمة والحكمة تمثل الإشادة والصفات الحسنة وواجب الحث عليها ، ومن هذا ندرك العمق العاطفي

للرثاء وضرورة تخليد الميت وذكر خصال حسنة فيه لذلك سعى الشاعر الجاهلي الى تخليد ذكره برثاء ذاته بنصوص شعرية له يتناقلها بعد موته الخلف عن السلف.

References:

Al Quran Al kareem .

Abn Manzur ,Abu Alfadl Jamal Aldiyani,(2003). Lisan Alearbi. Bayrut: Dar Sadir.

Al- Muejam Alwasit (D.T), Majmae Allughat Alearabiati.Alqahirata: Nashr Watawzie: Dar Aldaewa

Al- Niysaburi, Abu Alhusayn Muslmin, (1329.H). Aljamie Alsahihi. Alqahirata: Dar Altahrir

Alandilsi, Ahmad Bin Muhamadin,(1404.H). Aleaqad Alfarid . Bayrut: Dar Alkutub Aleilmiati.

Albahtari, Abi Eabd Alwalid, (2007). Diwan Alhamasati. Alamarat : Almajmae Althaqafiu Abu Zabi

Albistani, Butrus,(D.T) . Addba' Alearab Fi Aljahiliat Wasadar Alaslama . Misr : Nahdat Misr Liltibaeat Walnashr.

Aldumayri , Kamal Aldiyn Muhamad, (D.T).Hyat Alhayawan Alkubraa . Bayrut :Dar Alkutub Aleilmiati.

Aleashmawi, Du. Muhamad Zaki, (1980). Alnaabighat Aldhabyani Mae Dirasat Alqasidat Alearabiat Fi Aljahiliati. Bayrut: Dar Alnahdat Alearabia.

Alfakhuri, Hanaa, (1986). Aljamie Fi Tarikh Al'adab Alearabii. Dar Aljil :Matbaeat Alrahmania.

Alhawi, Ayilia,(1979). Fi Alnaqd Wal'adbi. Bayrut: Dar Alkitaab Allubnani.

Alhusayni, Alsayid Jaefar, (1414.H).Tarih Al'adab Alearbi(Al'adab Aljahili. Qum :Dar Aliaietisam.

Alqirtajini, Hazim Bin Muhamad, (2008).Minhaj Albulagha' Wasarah Al'udaba'i. Tunus: Aldaar Alearabiat Lilkitab.

Alqurashiu , Abu Zayd Muhamad , (1981). Jamharat Ashiear Alearab Fi Aljahiliat Waliaslami. Misr : Dar Nahdat Misr.

Alshaafi, Mustafaa Eabd Alshaafi, (1425.H). Diwan Amru Alqisi. Bayrut: Dar Alkutub Aleilmiati.

Alsuwri, Du. Mustafaa Eabd Alshaafi, (1990). Shaer Alritha' Fi Aleasr Aljahilii (Dirasat Faniyatun). Masr: Alsharikat Almisriat Alealamiat Lilnashr Lunjman.

Altaayiy, Abu Tamaam Hibib,(1322.H).Diwan Alhamasa (Man Ashiear Alearabi).Masar: Matbaeat Tawfiq.

Altabrizi, Abu Zakariaa Bin Yahyaa,(1992). Sharh Diwan Eantarata. Lubnan : Dar Alkitaab Alearabii.

Alzubaydiu, Alsayid Muhamad Murtadaa, (T.D). Taj Alearus Min Jawahir Alqamus: Alkuayt.

Bashir, Niemat Maqbuli, (1997). Almarathiu Alshieriat Fi Easr Sadar Alaslami. Bayrut : Jamieat Mishghan.

Eabaasi, Ahsan,(1962).Sharah Diwan Libid Bin Rabieat Aleamirii. Alkuayt: Silsilat Tusadiruha Wizarat Al'anba'.

Eabd Alrahman, Hashim Yunis, (1992).Alhayaat Alfikriat Fi Aljazirat Alearabiat Qabl Alaslami. Aleiraqi: Jamieat Almawsil.

Eabd Alsabur,Silah,(1973).Qira'at Jadidat Lishaerina Alqadimi. Bayrut :Dar Alnajah.

Hasanu, Jad Hasan,(2012). Al'adab Alearabiu Bayn Aljahiliat Walaslami. Dimashqa: Dar Alearab Lildirasat Walnashr.

Husayn, Alsayid Eabd Alhalim Muhamad ,(2012). Alritha' Fi Alshier Alearabii: Maqalat Manshuratan Fi Shabakat Al'ulukka.

Mustafaa Abraham, Alzayaat Aihmad, Eabd Alqadir Ahmad, Muhamad Alnajaar.

Yamutu, Yasir, (1934). Shaeirat Alearab Fi Aljahiliat Walaslami. Bayrut: Adyan Eulum Aldiyn.

Zakariaa , Abu Alhasan Ahmad, (1399.H). Muejam Maqayis Allugha . Bayrut :Dar Aljili.